سقطت فى الانتخابات...

تأليف الأستاذ حنفى محمود جمعه

بقلم الأستاذ صديق شيبوب

لا أدرى ، أأواسى الأستاذ حنفى محمود جمعه لفشله فى الانتخابات أم أهنئه لأجله . أما المؤاساة فللجهد الذى بذله ولم يثمر ، وللمال الذى أنفقه ولم يفد ، وللآمال التى عقدها حينا فتبددت . وأما التهنئة فلأنه خرج من المعركة الانتخابية التى خاض غمارها فى أواخر سنة ١٩٤٤ بكتابه الناجح « سقطت فى الانتخابات[1] » ولولا فشله فى تلك الانتخابات لما كتبه ، فلعله كان يتحرج من كشف النقاب عن دخائلها ، وعما يجرى فيها من أمور مخالفة للقانون ، وعن الوسائل التى يتذرع بها المرشحون للفوز ، وعن الوسطاء من المرتزقة الذين ينتهزون الفرصة ليبتزوا مال المرشح . وعن الناخبين من الجهال الذين يتقاضون ثمن أصواتهم ، وعن رؤساء النقابات ومشايخ الحارات الذين يقدمون عددا معينا من الناخبين ... إلى غير ذلك مما تجده مفصلا فى الكتاب .

وقد عرف الأستاذ حنفى محمود جمعه كيف ينسق الحوادث وكيف يرويها حينا فى سذاجة مقصودة ، وكيف يحللها أحيانا فى تفكير صحيح مستقيم ، وكيف يستخلص طورا العظات البالغة من تقلباتها ، وكيف يترك طورا للقارىء أن يتولى بنفسه استخلاص تلك العظات .

والحق أن الكتاب ملىء بالدروس القيمة التى يجب أن نتدبرها لأنه يعالج ناحية هامة من حياتنا القومية ، ويقدم صورة ملموسة للانتخابات التى تجرى بين ظهرانينا ، ويصف العوامل المحلية التى تؤثر فيها . ولا شك أن العوامل التى تؤثر فى الانتخابات متعددة الوجوه متبدلة الأنواع ، تختلف باختلاف البيئات والبلدان والشعوب .

ويكفى أن نعرف أنها عند جميع الأمم تكلف مبالغ باهظة من المال لنقدر تلك العوامل الكثيرة ، فالاعلانات والحفلات والرحلات وما إليها من أنواع الدعايات التى تستدعى نفقات طائلة لا يستطيع أن يتكبدها جميع الناس أو جميع الأحزاب .

فإذا تجاوزنا هذه العوامل المادية إلى العوامل الأدبية والاجتماعية اضطرنا الحديث إلى التنويه بصفات المرشح التى تجعله محبوبا من تاخبيه مرغوبا فيه ، وإلى الإشارة إلى نفوذه فى الدائرة التى يتقدم فيها وعصبيته وجاهه ... كل هذا يحملنا على التقرير بأن الانتخابات التى تبدو جرة لأول وهلة أى أنها حرة من تداخل السلطات الحاكمة وفرض نظرياتها وأغراضها على الناخبين تظل خاضعة لمؤثرات خارجية واسعة النطاق ، ولعوامل مختلفة يصعب تحديدها ويجعلنا نعنى فى بعض الأحيان بالتفاوت بين النائب وبين المهمة القومية التى يضطلع بها ...

فإذا عدنا إلى العوامل المحلية ، وجدنا أن بمصر قلما يقبل العقلاء على الانتخاب لسبب ذكره المؤلف ، ولا شك أن الوعى القومى يزداد انتباها بنسبة زيادة المتعلمين وأخذهم أنفسهم بالواجب الذى يمليه عليهم هذا الوعى بأن يتقدموا لصناديق الانتخاب ، وأن يفهموا أن ذلك فرض قومى لا مناص لمواطن حرى بهذا الإسم من تأديته .

ولا أريد أن أطيل الحديث فى هذا الباب مما يوحيه كتاب الأستاذ حنفى محمود جمعه ، ولكنى أردت أن أشير إلى العيوب التى تعترض الانتخابات لتداركها واصلاحها .

فإذا عدنا إلى ما فى الكتاب وجدنا أن الصورة التى يجلوها للحوادث كاملة فى مجموعها طيبة التناسق بين أجزائها حتى ليصح أن نقول إن كتاب « سقطت فى الانتخابات » قصة من أجل القصص لا تنقصها قوة البناء وجودة الربط بين الأجزاء ومتانة التأليف . وهو أيضا قصة من قصص المغامرات فيها الأخذ والرد والكر والفر ، والصراحة والحيلة .. وفيها تحليل لشخصيات عديدة ممن لقيهم المؤلف ، وممن عرضوا عليه خدماتهم ، وممن

(١) طبع مطبعة السفير ، ويقع فى ١٨٤ من القطع المتوسط ، وثمنه عشرون قرشا .

قصد إليهم ، وكل هؤلاء من طبقة الشعب ، القليل منهم من انصاف المتعلمين وأغلبهم من الجهال ، وفيهم المخلص والماكر والمحتاج ، وفيهم ثرى الحرب الجاهل ، وفيهم النفعي المتقلب ، وفيهم الزعيم الذى يحتاج لهالة السلطات المحلية لتدعيم نفوذه ، وفيهم « الفتوة » الذى يبغى الشغب للشغب ، ويدع شجاعته وبأسه فى خدمة من يدفع ثمنهما .

وفى الكتاب صور شتى للتفكير الشعبي الساذج وهو أحيانا تفكير سليم . فهذا أستاذ بمدرسة أهلية يعلم تلاميذه الهتاف بحياة المرشح الذى يؤيده ، لأن من عادة الصغار أن يرددوا فى منازلهم الأناشيد والهتافات التى تعلموها بالمدرسة ، وهكذا يؤثرون على آبائهم وذوى قرابتهم . وكذلك يطوف صبية يوم الانتخابات هاتفين لأحد المرشحين ليؤثروا فى الناخبين الأميين الذاهبين إلى الانتخاب ليؤيدوا صوتهم للاسم الذى تردد بآذانهم وعلق بأذهانهم فى آخر لحظة ، وتسير حوادث القصة فى لين وهوادة ، فمن تفكير فى الترشيح ، إلى دفع تأمينه ، إلى خوض المعركة الانتخابية ، وهى معركة كلامية فى الخطب التى تلقى ، وفكرية فى تدبير وسائل الدعاية ، ومادية من حيث إنفاق المال وبذله عن سعة ، وواقعية من حيث تحدى المزاحمين وإثارة الشغب عليهم وعلى أنصارهم ... إلى غير ذلك مما كان يثور الأستاذ حنفى عليه فى دخيلة نفسه ، لأنه محام ومن رجال القانون الذى يأبون إلا ما يسينه ، ولكنه كان يضطر مرغما إلى الخروج عليه تحت تأثير أنصاره وردا لحملات منافسيه . ولعله كان يكثر من إلقاء الخطب لأنه قدير عليها بحكم مهنته ، وقد شاء أن يتحدى مزاحميه فى هذا المضمار ، فنشر فى الصحف يدعوهم إلى النزال فيه (تعالوا اخطبوا إذا قدرتم واعرضوا معى صحائفكم وما أنتم بقادرين) ولكنه ظهر بعد ذلك أن الأصفر الرنان فى تعبير القدماء ، وأوراق النقد المتداولة بلغة هذا الزمان ، أبلغ حجة وأجلى بيانا من بلاغة المنطق وفصاحة اللسان .

وفى كتاب « سقطت فى الانتخابات » غير هذا وذاك من صور سكندرية شعبية بحتة استطاع المؤلف أن يبرزها فى الإطار الخليق بها .

هذه العناصر التى عددناها تجعل من كتاب « سقطت فى الانتخابات » قصة كاملة كما قلنا ، قصة مغامرات واقعية لأنها مستمدة من صميم الحياة ، وقد عاش المؤلف حوادثها ، وعاش أمثالها غيره من زملائه الذين رشحوا أنفسهم فى الانتخابات . وفى واقع الحياة من المغامرات ما لا يصل إليه خيال القاص البارع .

كان يتراوح فى ذهنى وأنا أطالع هذا الكتاب ذكرى الجهاد الأدبى الذى حمل رايته بالاسكندرية نفر من الشباب فى أوائل عهد « جماعة نشر الثقافة » أى منذ أكثر من اثنتى عشر سنة أو يزيد . وقد تخلف البعض بعد ذلك منصرفين إلى أعمالهم واستمر البعض الآخر بحكم المهنة ، وعرف غير هذين الفريقين كيف يوفق بين عمله وبين الاشتغال بالأدب . وكان ولا يزال من هذا الفريق الأخير الأستاذ حنفى محمود جمعه ، فهو المحامى الذى تقدر مواهبه دائر القضاء وتظهر مهارته فى جلسات المحاكم وهو كذلك الأديب المتمكن الذى كانت له جولات موفقة فى الأقصوصة ، والذى كانت له مكانته بين زملائه من أعضاء تلك الجماعة . ويعرف أخصاؤه أنه ظل مخلصا للأدب ، وفيا لأصدقائه الأدباء ، ولا أدل على ذلك من كتابه : « سقطت فى الانتخابات » ، الذى تجلى فيه روح الأديب ، وإحساسه ، ودقة ملاحظته ، وصدق حكمه على الناس ، والحوادث . وإذا كان من السهل على الإنسان أن يلاحظ الحوادث فى دقة وانتباه إذا شاهدها عن كثب مشاهدة الرائى المستقل عنها فانه من أصعب الصعاب أن يحسن الملاحظة ، وأن يخلص فى الحكم على الحوادث إذا خاض غمارها بنفسه ، وكان من أشخاصها أو أبطالها كما يقولون . وفى هذه الحال قلما يستقيم صدق الاحساس ودقة الملاحظة إلا للأديب الذى تعود ذلك أى الذى تعود أن يتجرد من نفسه ، ويتخلص من شعوره وأنانيته .

وهذا ما فعله الأستاذ حنفى محمود جمعة فى كتابه « سقطت فى الانتخابات » فهو يروى ما له وما عليه ، ويتندر من نفسه ومن غيره وهو نوع من الفكاهة المستملحة التى يسميها الانجليز (هيومر) ويسير فى سرد الحوادث متنقلا فى كثير من اللباقة ، بين السذاجة والطرافة والبراعة ، وبعد : ألم أكن صادقا فى حيرتى بين مواساة الصديق الأستاذ حنفى محمود جمعة لفشله فى الانتخابات وبين تهنئته لهذا الفشل وقد أفاد الأدب بكتابه الطريف ، ونبه إلى نقص فى الحياة الاجتماعية والقومية ..

أما مواهبه الأدبية ، وبراعته الفنية ، واطراد أسلوبه وسلاسته ، فانها مزايا ظاهرة يتبينها كل مطالع كتاب « سقطت فى الانتخابات » وهو كتاب قيم جدير بالتقدير والثناء .

صديق شيبوب